مختصر قصة التتار الجزء السادس

الكاتب: موقع قصة الإسلام

تاريخ أبحاث

موقعة عين جالوت

مرَّ جيش التتار غرب بيسان، وانحدر جنوبًا في اتجاه عين جالوت حيث كانت القوات الإسلامية قد أخذت مواقعها، ورتبت صفوفها، ووقفت في ثبات تنتظر الجيش التتري.

كان هذا في يوم 24 من رمضان سنة 658هـ/ 1260م، وهو اليوم السابق مباشرة للموقعة الرهيبة: عين جالوت. وعلى ذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان، وقضى المسلمون الليل في القيام والابتهال والدعاء والرجاء.

وحان وقت الفجر، وصلى المسلمون الفجر في خشوع، ورتبوا صفوفهم بعد الصلاة واستعدوا، وما هي إلا لحظات وأشرقت الشمس؛ هذا يوم الجمعة الخامس والعشرون من رمضان سنة 658هـ/ 1260م، وبشروق الشمس أضاءت الدنيا، ورأى المسلمون من بعيد جيش التتار!!

أتى الجيش التتري المهول من اتجاه الشمال، وبدأ في الاقتراب من سهل عين جالوت، وعلى أبواب السهل وقف الجيش التتري في عدده الرهيب وعُدَّته القوية، ولم يكن بالسهل أحد من المسلمين؛ فقد كانوا يقفون جميعًا خلف التلال.

لكن -كما أشرنا من قبل- كانت مقدمة جيش المسلمين بقيادة ركن الدين بيبرس لا تخفي نفسها؛ وذلك حتى يعتقد جواسيس التتار أن هذه المقدمة هي كل الجيش، ومع ذلك فعند قدوم جيش التتار كانت هذه المقدمة مختفية هي الأخرى، ثم أشار لها قطز -رحمه الله- أن تنزل من فوق التلال للوقوف على باب السهل لقتال الجيش التتري.

وبدأت القوات الإسلامية تنساب من فوق التلال إلى داخل سهل عين جالوت، ثم تتجه إلى شمال السهل للاقتراب من جيش التتار، ولم تنزل مقدمة الجيش دفعة واحدة، إنما نزلت على مراحل، وفي صورة عجيبة؛ تتابعت الكتائب

https://murabet.com

الإسلامية بألوانها الرائعة المختلفة، كل كتيبة بلون؛ فبُهِت كتبغا وقادته وجنودهم {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: 258].

لقد كان كتبغا معتادًا أن يرى جنود المسلمين وراء الحصون والقلاع يرتجفون ويرتعبون، أو يراهم وهم يتسارعون إلى الهروب فزعًا من جيش التتار، أو يراهم وهم يسلِّمون رقابهم للذبح الذليل بسيوف التتار!! كان كتبغا معتادًا على رؤية المسلمين في إحدى هذه الصور المهينة، أما أن يراهم في هذه الهيئة المهيبة العزيزة، فهذا ما لم يحسب له حسابًا أبدًا!!

كانت كل هذه الفرق هي مقدمة جيش المسلمين فقط، وهي أقل بكثير من جيش التتار الرهيب؛ فقد احتفظ قطز -رحمه الله- بقواته الرئيسية خلف التلال، وقد قرر ألا تشترك في المعركة إلا بعد أن تُنهَك قوات التتار.

وبعد أن نزلت مقدمة المسلمين بقيادة ركن الدين بيبرس بدأت فرقة الموسيقى العسكرية الإسلامية المملوكية تظهر على الساحة، وانطلقت في قوة تدق طبولها، وتنفخ في أبواقها، وتضرب صنوجها النحاسية، لقد كانت الجيوش المملوكية تتلقى الأوامر عن طريق هذه الدقات المتفق عليها، والتي لا يعرفها الأعداء.

ونظر كتبغا إلى مقدمة القوات الإسلامية، وكان لا يدرك شيئًا عن القوات الرئيسية المختبئة خلف التلال، فوجد أن قوات المقدمة الظاهرة أمامه قليلة جدًّا بالنسبة لقواته، ومع ذلك فهي في هيئة حسنة ومنظر مهيب، فأراد كتبغا أن يحسم المعركة لصالحه من أول لحظاتها؛ لذلك قرر أن يدخل بكامل جيشه وقواته لحرب مقدمة المسلمين.

وهذا تمامًا ما كان يريده الملك المظفر قطز رحمه الله، وأعطى كتبغا قائد التتار إشارة البدء لقواته، وانهمرت جموع التتار الرهيبة وهي تصيح صيحاتها المفزعة على مقدمة جيش المسلمين. أمَّا القائد المحنك ركن الدين بيبرس فقد كان يقف في رباطة جأش عجيبة، ومعه الأبطال المسلمون يقفون في ثبات، وقد ألقى الله U عليهم سكينة واطمئنانًا، وكأنهم لا يرون جحافل التتار، حتى إذا اقتربت جموع التتار أعطى بيبرس إشارة البدء لرجاله، فانطلقوا في شجاعة نادرة في اتجاه جيش التتار.

https://murabet.com

وارتطم الجيشان ارتطامًا مروعًا! كانت هذه الفرقة المملوكية من أفضل فرق المسلمين، وكان كثير من أمراء هذه المقدمة -بما فيهم ركن الدين بيبرس- من أولئك الذين شاركوا في موقعتي المنصورة وفارسكور ضد الحملة الصليبية السابقة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، وذلك منذ عشر سنوات في سنة 648هـ/ 1250م؛ وبذلك يكون هؤلاء الأمراء من أصحاب الخبرة العسكرية الفائقة، ومن أعلم القادة بطرق المناورة وأساليب القتال وخطط الحرب.

وثبتت القوات الإسلامية ثباتًا رائعًا مع قلة عددها؛ مما دفع كتبغا إلى استخدام كل طاقته دون أن يترك أي قوات للاحتياط خلف الجيش التتري، كل هذا وقطز -رحمه الله- يرقب الموقف من بعيد، ويصبِّر نفسه وجنده عن النزول لساحة المعركة حتى تأتي اللحظة المناسبة.

كان هذا هو الجزء الأول من الخطة الإسلامية: استنزاف القوات التترية في حرب متعبة، والتأثير في نفسياتهم عند مشاهدة ثبات المسلمين وقوة بأسهم.

ثم جاء وقت تنفيذ الجزء الثاني من الخطة الإسلامية البارعة، ودقت الطبول دقات معينة لتصل بالأوامر من قطز إلى بيبرس؛ ليبدأ في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة. وكان الجزء الثاني من الخطة عبارة عن محاولة سحب جيش التتار إلى داخل سهل عين جالوت، وحبذا لو سُحِب الجيش بكامله؛ بحيث تدخل قوات التتار في الكمائن الإسلامية تمهيدًا لحصارها.

وبدأ ركن الدين بيبرس في تنفيذ هذا الجزء من الخطة على صعوبته، فكان عليه أن يُظهِر الانهزام أمام التتار، ويتراجع بظهره وهو يقاتل، على ألا يكون هذا التراجع سريعًا جدًّا حتى لا يلفت أنظار التتار إلى الخطة، ولا بطيئًا جدًّا فتهلك القوة الإسلامية القليلة أثناء التراجع. وبدأ ركن الدين بيبرس في الانسحاب التدريجي المدروس، وكلما رجع خطوة تقدم جيش التتار في مكانه.

هذه الخطة هي نفس خطة القوات الإسلامية في موقعة نهاوند الشهيرة ضد القوات الفارسية وذلك في سنة 19هـ، وهنا في عين جالوت يستفيد قطز رحمه الله من تجارب المسلمين السابقة، ويطبِّق خطة نَهَاوَنْد بحذافيرها.

وقام المسلمون بتمثيلية الانهزام خير قيام، وبدأ التتار يدخلون السهل وهم يضغطون على المسلمين، وفي النهاية دخل جيش التتار بكامله إلى داخل

سهل عين جالوت، وانسحب ركن الدين بيبرس بمقدمة الجيش إلى الناحية الجنوبية من سهل عين جالوت؛ وفي غضون حماسة كتبغا للقضاء على جيش المسلمين لم يترك أيًّا من قواته الاحتياطية خارج السهل، بل أخذ معه كل جنوده!!

وهذا تدبير رب العالمين I، الذي يخرج عن القياسات العادية للبشر، ويدفع أشخاصًا بعينهم لأفعال معينة في ظروف معينة {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: 30].

وبذلك نجح الجزء الثاني من الخطة الإسلامية نجاحًا باهرًا، وبدأ تنفيذ الجزء الثالث من الخطة، وجاءت إشارة البدء من قطز عن طريق الطبول والأبواق، ونزلت الكتائب الإسلامية العظيمة من خلف التلال إلى ساحة المعركة، نزلت من كل جانب، وأسرعت فرقة قوية لتغلق المدخل الشمالي لسهل عين جالوت؛ وبذلك في دقائق معدودات أحاطت القوات الإسلامية بالتتار إحاطة السوار بالمعصم.

واكتشف كتبغا الخُطَّة الإسلامية بعد فوات الأوان، وحُصِر هو والتتار في داخل سهل عين جالوت، وبدأ الصراع المرير في واحدة من أشد المعارك التي وقعت في التاريخ، لا مجال للهرب، ولا مجال للمناورات؛ السهل منبسط والمساحات مكشوفة، وظهر تفوق الميمنة التترية، فقد بدأت تضغط على الجناح الأيسر للقوات الإسلامية، وبدأت القوات الإسلامية تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار، وبدأ التتار يخترقون الميسرة الإسلامية، وأخذ الشهداء يسقطون، ولو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش الإسلامي، وتتعادل بذلك الكفتان، وقد ترجح كفة التتار، ويصبح إغلاق السهل خطرًا على المسلمين.

وشاهد قطز -رحمه الله- المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بقوات احتياطية، ولكن الضغط التتري استمر، وبدأ بعض المسلمين يشعر بصعوبة الموقف، ولعلَّ بعضهم أصبح يشك في النصر، ولا ننسى السمعة المرعبة لجيش التتار الذي قيل عنه إنه لا يهزم.

هنا لم يجد قطز رحمه الله إلا حلاًّ واحدًا لا بديل له، لا بد أن ينزل بنفسه -

رحمه الله- إلى ساحة القتال، لقد ألقى بخوذته على الأرض؛ تعبيرًا عن اشتياقه للشهادة، وعدم خوفه من الموت، وأطلق صيحته الشهيرة التي قلبت الموازين في أرض المعركة، لقد صرخ قطز -رحمه الله- بأعلى صوته: واإسلاماه، واإسلاماه!! وألقى بنفسه -رحمه الله- وسط الأمواج المتلاطمة من البشر.

وفوجئ الجنود بوجود القائد الملك المظفر قطز رحمه الله في وسطهم، يعاني مما يعانون، ويشعر بما يشعرون، ويقاتل كما يقاتلون؛ إنها ليست هجمة على ذواتهم، إنها هجمة على الإسلام. واشتعل القتال في سهل عين جالوت، وعلا صوت تكبير المجاهدين على كل شيء، ولجأ المسلمون بصدقٍ إلى ربهم في هذا اليوم المجيد من شهر رمضان.

وقاتل قطز رحمه الله قتالاً عجيبًا!! ثم صوَّب أحد التتر سهمه نحو قطز رحمه الله فأخطأه، ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز فقُتل الفرسُ من ساعته، فترجَّل قطز رحمه الله على الأرض، وقاتل ماشيًا لا خيل له! وما تردد، وما نكص على عقبيه، وما حرص على حياته رحمه الله. وبدأت الكفة -بفضل الله- تميل من جديد لصالح المسلمين، وارتدَّ الضغط على جيش التتار، وأطبق المسلمون الدائرة تدريجيًّا على التتار.. {وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [الفرقان: 26].

مصرع الطاغية

وتقدم أمير من أمراء المماليك المهرة في القتال وهو جمال الدين آقوش الشمس، وهو من مماليك الناصر يوسف الأيوبي، وقد ترك الناصر لما رأى تخاذله وانضم إلى جيش قطز، وأبلى بلاءً حسنًا في القتال، واخترق الصفوف التترية في حملة صادقة موفَّقة حتى وصل في اختراقه إلى (كتبغا) قائد التتار!! ورفع البطل المسلم سيفه، وأهوى بكل قوته على رقبة الطاغية المتكبر كتبغا، وطارت الرأس المتكبرة في أرض القتال، وسقط زعيم التتار، وبسقوطه سقطت كل عزيمة عند جيش التتار.. {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

https://murabet.com

رَمَى} [الأنفال:17]
وتغير سيناريو القتال عند التتار، فما أصبح لهم من هَمٍّ إلا أن يفتحوا لأنفسهم طريقًا في المدخل الشمالي لسهل عين جالوت ليتمكنوا من الهرب، وانطلق المسلمون خلف التتار، يقتلون فريقًا، ويأسرون فريقًا.
وركز التتار جهدهم على فتح ثغرة في مدخل سهل عين جالوت الشمالي، واستطاعوا بعد عناءٍ شديد أن يُحْدِثوا ثغرة في الصف المسلم الواقف على باب المدخل، وانطلق التتار في سرعة عجيبة يُوَلُّون الأدبار، وخرجت أعداد كبيرة يُسرِعون الخُطا في اتجاه الشمال لعلَّ هناك مهربًا.
ووصل التتار الفارون إلى بيسان (حوالي عشرين كيلو مترًا إلى الشمال الشرقي من عين جالوت)، ووجد التتار أن المسلمين جادُّون في طلبهم، فلم يجدوا إلا أن يصطفوا من جديد؛ لتدور موقعة أخرى عند بيسان أجمع المؤرِّخون على أنها أصعب من الأولى، وقاتل التتار قتالاً رهيبًا، وكادوا أن يقلبوا الأمور لمصلحتهم، وابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديدًا.
وانطلق قطز يحفِّز الناس، ويدعوهم للثبات، ثم أطلق صيحته الخالدة: واإسلاماه، واإسلاماه، واإسلاماه!! قالها ثلاث مرات، ثم قال في تضرُّع: "يا الله! انصر عبدك قطز على التتار"[1]. وما إن انتهى من دعائه وطلبه -رحمه الله- إلا وخارت قوى التتار تمامًا.

نهاية الأسطورة

وبدأ الجنود الذين روَّعوا الأرض قبل ذلك يتساقطون كالذباب على أرض بيسان، قضى المسلمون تمامًا على أسطورة الجيش الذي لا يُقهر، وارتفعت راية الإسلام وتهاوت راية التتار، وجاءت اللحظة التي ينتظرها المسلمون منذ أربعين سنة أو تزيد، {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الروم: 4، 5].
لقد أُبِيد جيش التتار بكامله!! لم يبق على قيد الحياة من الجيش أحد بالمرة!
لقد فَنِي الجيش الذي اجتاح نصف الكرة الأرضية؛ فني الجيش الذي سفك

https://murabet.com

دماء الملايين وخرَّب مئات المدن، وعاث في الأرض فسادًا. وانتصر الجيش الإسلامي العظيم!!
لقد نزل البطل المجاهد العظيم التَّقيُّ الورع، نزل من على فرسه، ومرَّغ وجهه في الأرض، يسجد شكرًا لله U!!
لم تنته مهمة الملك المظفَّر بعدُ؛ ما زال هناك تتار في بلاد الشام، وما زال هناك تتار في دمشق وحمص وحلب وغيرها من المدن الشامية، وما زال هناك تتار في العراق وتركيا وفارس وغيرها، ودمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مائة وخمسين كيلو مترًا تقريبًا من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها. لا بد من تطهير هذه المدينة الإسلامية العظيمة من دنس التتار؛ فأرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر المجيد.
وصل الكتاب يحمل البشارة إلى أهل دمشق، واستقبل المسلمون الخبر بفرح لا يوصف؛ فقد يئس الكثير من إمكانية هزيمة التتار، فلما سمعوا بأخبار الانتصار الباهر ارتفعت هممهم إلى السماء، ورأوا عمالقة التتار أقزامًا، وقام الشعب في دمشق بثورة عارمة على جيش المغول، وأمسكوا بجنود التتار وفتكوا بهم.. {فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ} [الذاريات: 45].
لقد سقطت هيبة التتار، وتنفَّس المسلمون الصعداء بعد قهرٍ وبطش استمر أكثر من ستة أشهر، وانتهى المسلمون من أمر الحامية التترية بسرعة؛ فمنهم من قُتل، ومنهم من أسر، ومنهم من فرَّ، واتجه المسلمون بعد ذلك للقصاص من النصارى الذين تطاولوا على أهل الإسلام في أثناء سيطرة التتار على دمشق.
وبينما هم كذلك -وفي اليوم الثلاثين من رمضان سنة 658هـ/ 1260م- وصل البطل العظيم الملك المظفر قطز رحمه الله إلى دمشق، بعد خمسة أيام من يوم عين جالوت؛ واستقبله الناس استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وخرج الرجال والنساء والأطفال يستقبلون البطل المظفر.
لم يضيِّع قطز رحمه الله وقتًا بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس تتبع الفارين من التتار، وتُطهِّر المدن الشامية الأخرى من الحاميات التترية، فوصلت القوات الإسلامية إلى حمص، واقتحمت على التتار معسكراتهم ففرُّوا

مذعورين، وحرَّر المسلمون أسراهم الذين كانوا في قبضة التتار، وانطلقوا خلف الحاميات التترية الهاربة، فقتلوا أكثرهم، وأسروا الباقين، ولم يفلت منهم إلا الشريد.

وطَهَّر المسلمون بلاد الشام بكاملها في غضون بضعة أسابيع، وعادت من جديد أرض الشام إلى ملك الإسلام والمسلمين، نسأل الله لها ولسائر بلاد المسلمين دوام التحرُّر والعزة.

وأعلن قطز رحمه الله توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفُرقة، وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله في سنة 648هـ/ 1250م، وخُطِب لقطز رحمه الله على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية، حتى خطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات.

ومع أن موقعة عين جالوت هذه كانت موقعة واحدة، وتمت في يوم واحد إلا أن آثارها كانت من القوة بحيث لا تتخيل، وكانت من الكثرة بحيث لا تُحصى؛ فمن آثارها:

الأثر الأول: عاد المسلمون إلى اللهU أثناء التحضير، وأثناء الإعداد لهذا اللقاء، وأثناء المعركة ذاتها، وبعد المعركة، ولمدة طويلة من الزمان.

الأثر الثاني: قتل المسلمون في عين جالوت الهزيمة النفسيَّة البشعة التي كانوا يعانون منها.

الأثر الثالث: عادت الهيبة للأمة الإسلامية بعد غياب دام أكثر من ستين سنة.

الأثر الرابع: فنيت قوة التتار العسكرية في منطقة الشام وتركيا وفلسطين، لم يُسمع عن التتار في هذه المنطقة لعشرات السنين بعد ذلك؛ اختفى القهر والظلم، واختفى البطش والتشريد، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم، ولم يروِّع الناسَ أحدٌ في هذه المناطق إلا بعد عين جالوت بأكثر من مائةٍ وأربعين عامًا، عندما دخل التترى السفَّاح تيمورلنك بلاد الشام، فاجتاح حلب ودمشق سنة 804هـ/ 1402م بعد أن اجتاح بلاد العالم الإسلامي الشرقية.

الأثر الخامس: عادت الوَحْدة العظيمة بين مصر والشام، وكوَّنا معًا التحالف

https://murabet.com

الاستراتيجي الصُّلب الذي يمثل حاجز صدٍّ رائع ضد الهجمات الأجنبية.
الأثر السادس: وهو من أعجب الآثار، وأعظمها!! فقد رأى كثير من التتار دين الإسلام عن قرب، وقرءوا عن أصوله وقواعده وقوانينه، وعلموا آدابه وفضائله، ورأوا أخلاقه ومبادئه، فأعجبوا به إعجابًا شديدًا، وخاصَّةً أنهم - كعامة البشر- يعانون من فراغ ديني هائل، فليس هناك تشريع يقترب أو يحاول الاقتراب من دين الإسلام، ومن اقترب منه وبحث فيه لا بد أن يرتبط به، إن كان صادقًا في بحثه، وطالبًا للحقيقة فعلاً.
لقد بدأ بعض التتار يؤمنون بدين الإسلام، ثم شاء الله U أن يدخل الإيمان في قلب أحد زعماء القبيلة الذهبية -أحد الفروع الكبيرة جدًّا في قبائل التتار-، وهذا الزعيم هو ابن عم هولاكو مباشرة، وهو أخو (باتو) القائد التتري المشهور، وتسمَّى هذا الزعيم باسم (بركة)، وكان إسلامه في سنة 650هـ/ 1252م. ثم تولى (بركة) زعامة القبيلة الذهبية سنة 652هـ/ 1254م، وأصبح اسمه (بركة خان)، وكانت هذه القبيلة شبه مستقلة عن دولة التتار، وتحكم المنطقة التي تقع شمال بحر قزوين، والمعروفة في الكتب الإسلامية القديمة باسم (بلاد القبجاق) وهي تقع الآن في روسيا، وبإسلام هذا الزعيم دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام.
لقد كانت صفحات دامية في تاريخ الأمة الإسلامية، دفعت فيها ثمن الابتعاد عن تطبيق شرع الله U، ولكنها من خلال تلك المحنة عرفت سبيل النصر، وسلكت سبيل الرُّشد مرَّة أخرى.

الإشارات المرجعية:

١. المقريزي: السلوك 1/517

المصدر:

موقع قصة الإسلام

---

https://murabet.com

الكلمات المفتاحية:

#الستار

> تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تزكية الكاتب أو تبنى جميع أفكاره.

https://murabet.com